الجامعة الاسلامية
والمؤتمر الاسلامى

تمهيد — الرابطة الشرقية — الوحدة العربية — الجامعة الاسلامية — المؤتمر الاسلامى — عوامل اللغة — العرب والاسلام — مقارنة بالمؤسسة المسيحية — شئون اسلامية أخرى .

تمهيد

تقوم فى الشرق الآن نزعات وثابة ونهضات أخاذة ، ليس إلى دفعها من سبيل اللهم إلا سبيل السيف والمدفع، وهما سلاح العاجز الضعيف يحتمى بالباطل فيأبى إلا أن يؤوب بالفشل والخسران ، وكذلك كان وسيكون دائماً شأن القوة الغاشمة ، مهما سترت ضعفها ، وحاولت إخفاء فشلها وهزيمتها عن العالمين .

حسن إذن أن ينتبه الشرق ، وأحسن منه أن يأتلف زعماؤه ويتلاقوا على سر متقابلين، فان الحق الذى يجدر بنا ذكره ، هو أن الشرق لن يعود اليه مجده بأية حال ، ما لم يتعاون رجاله ويتحد قادته وتأتلف أممه . والحق أيضاً أن هذا الداء الوبيل — وأعنى به داء التفرق الذى تغلغل فى أجسامنا وبيئاتنا — محال أن يزول إلا بما قدمنا .

إن أمم الشرق هى الأمم التى فاقت غيرها منذ القدم ، وامتازت على سواها بالحرية والعيش الرغد ، وقد كانت قديماً — مع اختلاف الطبائع والأذواق — متحدة الرأى، مجتمعة الكلمة على محبة الوطن وإعزازه وإعلاء شأنه والدفاع عنه إذا مسه الأجنبى بأذى أو عادته الليالى والأيام . ومن أراد أن يرى آثار الوطنية الحقة فى الأمم ، ويعرف كيف توحد الميول وتجتمع العناصر المتفرقة فلينظر إلى تاريخ الشرق القديم ليعلم أنا جد صادقون .

وها هو الشرق قد تذكر مجده التالد، فأخذ يسعى بكل سبل السعى إلى تقوية أواصره وتجديد دعائمه ، وقد كان لمصر — وهى قلب الشرق النابض — نصيب وأى نصيب فى هذه النزعات على اختلاف أنواعها ، وتلك الرغبات على تباين أغراضها .

الرابطة الشرقية

فكان أن نشأت فيها جماعة (الرابطة الشرقية) تحقيقاً لفكرة نبيلة عمل عليها أولئك الذين أسسوها، وكلهم من قادة الفكر فى الشرق ورجال الاصلاح الممتازين . على أن الذى يؤسف له جد الأسف أن تلقى هذه الجماعة من عنت الظروف ، واختلاف مشارب أعضائها ، وتنازعهم فيما بينهم وبين أنفسهم على من هو أحق بالرياسة وأجدر ، واختلافهم بل انعدام التجانس بين

أشخاصهم، وتعدد لغاتهم، وتباين أفكارهم، وتنوع ثقافاتهم — أضف إلى هذا كله أشياء نافعة، وأشياء ليست بالنافعة : كالمال مثلا الذى حرمت منه الرابطة إلا قليلا ، فلم يمدها به سراة الشرق، بل قبضوا أيديهم عنها ، والمال كما تعلم عصب الحياة وقلب المشاريع النابض — كل أولئك كان سبباً أو كان جماعا للأسباب التى سببت إشراف الفكرة — فكرة الرابطة الشرقية — على الموت، إن لم تكن قد ماتت فعلا .

الوحدة العربيـة

إلى جانب هذه الجماعة قامت جماعة أخرى فى هذا العام تدعو إلى الوحدة العربية ، وتوحيد الثقافة بين أبناء الناطقين بالضاد ، وربط البلاد العربية بعضها إلى بعض . فكانت فى ذلك قوية بعض القوة ، متماسكة بعض التماسك . لكنها بالرغم من ذلك كله لم تقدر لها الحياة فكادت تشرف على الفشل إن لم تكن قد أشرفت فعلا ، وما ذلك إلا لوجود بعض الأسباب إن لم تكن كل الأسباب التى ذكرنا .

الجامعة الاسلاميـة

وها نحن الآن نسمع فى الشرق الاسلامى كله نغمة جديدة، تلك نغمة الجامعة الاسلامية التى دعى إليها ، وإلى القيام بتأسيسها ، جماعات المسلمين فى مختلف البلاد الاسلامية، على تباين لغاتهم، واختلاف نحلهم . وهذه النغمة التى نسمعها الآن ليست فى الحق بنت اليوم ، ولكنها — عند التحقيق — ترجع إلى أزمان بعيدة أقربها ذلك الزمن الذى رددها فيه السيد جمال الدين الافغانى، والشيخ محمد عبده ، والرحالة السيد عبد الرحمن الكواكبى ، بل والمرحومان مصطفى كامل باشا ، ومحمد فريد بك ، إذا حورنا فكرتهما بعض التحوير . وإذن فقد قامت هذه الفكرة برءوس زعماء الشرق قبل الآن ، لكنها لم تكن لتنجح بفعل دسائس المستعمرين وبثهم فى الشرقيين — من مختلف الأديان — عدة دعايات وترهات ما أنزل الله بها من سلطان .

والآن يعيد التاريخ نفسه ، فما أن سمع المستعمرون وأذنابهم بخبر انعقاد المؤتمر الاسلامى الذى اعتزم عقده ، حتى هلعت لذكره قلوبهم ، فأخذوا يحيكون حوله الدسائس ، ويخترعون الفتن والترهات لفشله وإحباطه . لهذا نحذر الشرقيين عموماً — مسلمين وغير مسلمين — من الانخداع بهذه الترهات التى تشاع حول ذلك المؤتمر ، وهو بعد جنين لم يولد، ونحثهم إلى إجابة دعوته والعمل على نجاحه بكل مافيهم من قوة ، فأنا قد سئمنا الفتن ، ومللنا الخداع .

فأما حياة تبعث الميت فى البلى وإما ممات لعمرى لم يقس بممات

***

أقول هذا ، وأنا جد والله ، لست بمطمئن إلى كل الأساس الذى قامت عليه الفكرة — فكرة انعقاد المؤتمر — وبعبارة أصرح فكرة « الجامعة الاسلامية » فقد كنت أرى أن تكون

هذه نتيجة لجامعتين : الأولى عربية ، والثانية شرقيـة ، وأنا مؤمن بما أقرر ، معتقد بأنه الطريق الوحيد للوصول إلى مانبتغيه ، معشر الشرقيين ، مسلمين وغير مسلمين . أما بهذه الطريقة التى سلكها القائمون بالأمر فبعيدة التحقيق ، عسيرة المنال .

وإنى لأرجو ألا يتسرع القارىء فيتهمنا بسبق الحوادث ، فلعلنا كنا من أول الذين علموا بالمسألة فى بدء نشأتها . وقبل أن تخرج من حيز القول إلى حيز العمل ، ولعلنا من أول الذين سيلبون الدعوة التى وصلتنا لحضور المؤتمر إن شاء الله .

وليس سراً أن نذيع على قرائنا أن أول رجل قام بالدعوة إلى فكرة انعقاد المؤتمر الأخيرة ، وفى هذه الآونة ، إنما هو السيد عبد العزيز الثعالبى زعيم المغرب الأكبر . وقد دعا إليها عن طريق مجلتنا « المعرفة » فى حديثين نشر أولهما بالجزء الثالث فى يوليو سنة ١٩٣١ ونشر ثانيهما بالجزء الخامس فى سبتمبر سنة ١٩٣١ . وقد كانا نتيجة لحديث دار بين كاتب هذه السطور وبين الاستاذ الثعالبى فى دار « المعرفة » فى الثالث من يونيو سنة ١٩٣١ ، بحضور العلامة الجليل شيخ العروبة احمد زكى باشا ، وزعيم سوريا المعروف الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، والاستاذ الكبير محمد لطفى جمعة وغيرهم .

الى ليس سراً أن أذيع على حضرات القراء ، أنى اقترحت على السيد الثعالبى عمل دعوة للرجال الممتازين فى الشرق على اختلاف نحلهم فوافقنى على عملها فعلا ، لكن حال دون إتمام ذلك سفر السيد الثعالبى إلى فلسطين لمقابلة السيد أمين الحسينى رئيس المجلس الأسلامى الأعلى ، والاتفاق على السير فى الخطة . فكان أن تقررت إقامة المؤتمر فى القدس الشريف ، بدل غيره من البلاد الشرقية أو الغربية كما كانت فكرة السيد الثعالبى أولا . وصاحب الفضل فى الفكرة .

وإذن فكلامنا فى هذا الموضوع صادر عن بعض الخبرة ، إن لم يكن عنها جميعها ، وحديثنا منبعث عن ملابسات لجل الظروف إن لم يكن للظروف كلها . ونحن نود — صادقين مخلصين — أن يتاح للاسلام من الرجال الصادقين ، والزعماء المخلصين ، والقادة المفكرين ، مايحقق للاسلام مجده . ويعيد له سؤدده . وإذا كنا — فى رجائنا ورغبتنا أن تتاح الفرصة لتحقيق هذه الأغراض — مخلصين صادقين ، فلسنا أقل صدقا ، ولا أضعف رجاء ، فى أن تتاح لنا حرية القول وإن كان خطيرا ، وصراحة الرأى وإن كان فطيرا ، فلرب كلمة خير من ألف .

على ضوء هذا الذى قدمنا نهجؤ القارىء منذ الآن فنقول له : إن الجامعة الأسلامية والمؤتمر الأسلامى ، لن يعودا بالفائدة المرجوة مادامت لهما الصورة التى يبدوان بها ، صورة بعيدة عما كانت تؤمله مصر ، وهيئاتها العلمية والدينية ، وعلى الأخص « الجامعة الأزهرية » . ومانظن أن الأزهر قد أصبح من الهوان بحيث يوضع فى الدرك الحضيض الذى وضعه فيه أصحاب المؤتمر ، وإلا فلماذا

أهمل الداعون شأنه وتركوه وكأن لم يكن فى العالم الأسلامى شىء يدعى الأزهر؟

أضف إلى ماتقدم ذلك الذى ذكرناه فى أول المقال من أن هذا المؤتمر الذى يدعو إلى « الجامعة الاسلامية » كان يجب أن يكون غاية لا وسيلة ، فقد كان خيرا أن نبدأ بالوحدة العربية . ومن ثم الوحدة الشرقية، وعندئذ، وعندئذ فقط نستطيع أن ننادى بالجامعة الأسلامية، بعد أن تكون قد استأمنا إخواننا المسيحيين ، وتحالفنا واليهود ، وترابطنا بالشرق كله . أما الآن فمن يأنس خيرا ؟ وأصابع المستعمرين تلعب ، ودسائس الصهيونية تحاك ؟

أنا مؤمن جدالايمان بأفضلية الوحدة العربية الآن ، وبمعنى أوضح مؤمن بضرورة البدء بها ، ومن ثم الشرقية . فالأسلامية . ولقد ورد فى الأثر « إذا ذل العرب فقد ذل الأسلام ».

العرب والاسلام

لقد جاء الأسلام وكانت تتنازع العالم سلطتان أو دولتان قويتان : الدولة الفارسية وهذه كانت تملك الشرق، والدولة الرومانية الشرقية وقد كانت تحكم الغرب . فلما أن جاء هذا الدين القويم أوجد أمة من أشتات متفرقة ، فكانت « العرب » ولم تكن « الفرس » مثلا أو تركستان أو الهند أو الأفغان .. فلما أن قويت شوكة المسلمين — وقد كانوا وقتذاك عربا — انتشروا فى أقاصى المعمور متدرجين متمشين مع سنة الطبيعة ، مبتدئين بالأقرب فالأقرب ، فكان النجاح حليفهم ، والنصر أليفهم، حتى بلغوا فى أقل من الثمانين سنة مالم تبلغه أمة من أمم العالم — لا فى القديم ولا فى الحديث — فى آلاف من السنين . أكنت ترى هذه الامبراطورية الهائلة — وقد جمعها الدين فى قانون واحد، ولم شعثها تحت راية واحدة — تدين لغير العرب؟ كلا ثم كلا.

لقد رأينا المسلمين — وقد قوضوا ممالك كسرى وقيصر، ونشروا سلطتهم من حدود الهند حتى شواطىء المحيط الأتلانتيكى، وهم فى كل ذلك عرب لم يشب جنسيتهم تدخل عنصر أجنبى. فكانت العصبية العربية سر نجاحهم ، كما كان العامل اللغوى سبب ترابط مملكتهم المترامية الأطراف.

عامل اللغة

فلما أن شرعت العناصر الأجنبية تتسرب إلى جسم المملكة الاسلامية دفعة واحدة، ابتدأت بوادر التفكك والانحلال تعمل عملها الهدام، وأخذ كل عنصر من العناصر الجديدة يظهر نفسه ويبغى لذاته دولة أساسها النعرة الجنسية، فما كاد ينتهى القرن الثالث للهجرة حتى تعددت إمارات المسلمين، بالنظر إلى لغاتهم، وعاداتهم، وأخلاقهم المتنوعة ، فكانت النتيجة أن رمى العنصر العربى سلاحه فأضاع سيادته السياسية بل والدينية أيضاً . ولولا القرآن لاضمحلت اللغة العربية وأصابها ما أصاب اللغة اللاتينية ، وكانت اليوم لغات متعددة لا يفهم ابن دجلة والفرات ما ينطق به ابن وادى النيل ، ولا يفقه أهالى الجزيرة ما يتكلمه أهالى سوريا وبلاد شمالى أفريقيا.

لم يقف التفرق عند هذا الحد بل تعداه إلى الدين نفسه ، إذ تعددت فيه المذاهب والنحل بالنظر إلى اختلاف عقليات الأمم التي دانت به ، فظهرت الفرق وتعددت المذاهب وكثرت الملل ونشأت النحل . واعتز كل بفريقه وطرائقه المبنية على النظريات الفلسفية والمجادلات الكلامية ، وقام ضد هؤلاء آخرون بآرائهم وميولهم العنصرية الوراثية .

مقارنة بالمسيحية

وهذا ما حصل تماماً في الديانة المسيحية ، إذ أن ناموس الطبيعة واحد في كل زمان ومكان لا يرحم مسلماً ولا يشفق على مسيحي ، ولا يفلت من تأثيره موحد أو وثني . فما كادت المسيحية تنتشر في مشارق الأرض ومغاربها حتى أخذت العوامل الجنسية والميول العنصرية تعمل فيها ، فشطرتها إلى مسيحية شرقية وأخرى غربية : الأولى أورثوذكية والثانية كاثوليكية ، وعلى رأس هذه الأخيرة البابا الذي وحد أوروبا تحت سلطته ومسكها بيد من حديد مدة عشرة قرون ، كان فيها الآمر الناهي والمستبد المطلق الذي لا تردله كلمة ، غير أن سلطته أخذت في التقلص لما شرعت الشعوبية تظهر في أوروبا فقامت ممالكها المتعددة وابتدأت تنفصل عنه سياسياً ودينياً ، فانشطرت الكنيسة الغربية إلى بروتستانتية وكاثوليكية ، واضمحلت سلطته السياسية تماماً ، وأصبحت سلطته الدينية في الممالك الكاثوليكية لا أهمية لها من الوجهة العمرانية . فهي لا تقدم ولا تؤخر في حيويتها . لم يمنع حصول هذا وحدة الكنيسة الكاثوليكية ولا ترابط شرائعها وقوانينها ، ولا صرامة أنظمتها ، ولا الاعتقاد في قداسة سلطتها وعصمة رئيسها عن الخطأ .

وعلى الماضي يجب علينا أن نقيس الحاضر والمستقبل . ففكرة الجامعات الدينية فكرة بعيدة التحقيق مالم تستند على مؤسسات جنسية أو جامعات لغوية . فالمجتمع الانساني مؤلف من وحدات هي الأمم ، تفصلها عن بعضها البعض — الحواجز الجغرافية والتفاهم اللغوي . فالحواجز الجغرافية أخذت تضمحل بالنظر إلى انتشار سبل المواصلات الحديثة ، ولم يبق لدينا إلا الفاصل اللغوي الذي هو فاصل طبيعي يميز كل أمة عن غيرها من الأمم ، و يوحد الناطقين بكل لغة و يجعلهم يشعرون شعوراً واحداً ، و يتغذون غذاءاً أدبياً واحداً . و بناء عليه إذا أردنا أن ننهض بالشرق من كبوته ، والمسلمين من غفوتهم — أن نوجه مجهوداتنا إلى الشرق العربي أولا . فنوحد أبناءه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم أولا ، وهذا أمر لا يتم إلا بتوحيد الثقافة ونشر العلوم والمعارف ، والعمل لغاية واحدة ، ألا وهي تأسيس اتحاد عربي شامل ، يساعدنا على ذلك وحدة اللغة العربية .

وعليه فاني أرى وأظنني مصيباً في رأيي هذا أن توجيه قادة المسلمين مجهوداتهم إلى إنشاء جامعة إسلامية ، قبل الجامعة العربية والجامعة الشرقية ، تبذير في قوى المسلمين لا ترجى منه فائدة . إذ كيف تقدر أن تجمع بين العقلية العربية والعقلية الفارسية ؟ أو بين إحدى هاتين

العقليتين أو كلتيهما معاً ، والعقليات الهندية ، والأفغانية ، والتركية ، وغيرها على اختلاف ثقافات أهلها وتعدد ميولهم السياسية مالم تأمن جانبهم ؟ أيحق للمسلم الهندى أن يغادر أخاه البرهمى الذى تجمعه به لغة واحدة وعادات واحدة وثقافة واحدة ، ويولى وجهه شطر المسلم العربى الذى لا يعرف كيف يتفاهم معه ؟

يقال مثل هذا عن الفارسى والأفغانى والتركى وغيرهم ، فكل أمة تدين بالاسلام لها ميولها السياسية ونزعاتها العمرانيـة التى تختلف كل الاختلاف عن التى لغيرها . ومثالنـا على ذلك أمم أوروبا التى لم تمنعها المسيحية من التصـادم وإشهار الحرب ضد بعضها ، بل والأمم الاسلامية نفسها التى نرى تاريخهـا مشحوناً بالحروب الداخلية مما هو مشهور ومعروف .

نحن الآن فى عصر ضعفت فيه المؤثرات الدينية — إلا عند من عصم ربك — وأصبحت العوامل الجنسية واللغوية الأساس الأول فى نشوء الأمم . ولهذا نرى أوروبا المستعمرة تبذل كل مجهوداتها فى تقوية النعرات الدينيـة فى الشرق ، والقضاء على الوحدات الجنسية واللغوية ، تفرح لتقدم الأولى وترتعد فرائصها من ذكر الثانية ، تهلل وتكبر كلما وجدت الاختلافات تعمل عملها الهدام فى جسم الشرق ، وتعد العدة لزرع بذور الشقاق والانفصال بين أبناء اللغة الواحدة ، وخصوصاً العرب .

إننا نراها تعمل تارة للقضاء على لغتنا ، وتارة لوضع الحواجز بين قطر عربى وآخر . إنها تعمل كل هذا لأن شبح الاتحاد العربى يتمثل أمام أعينها شبحاً مخيفاً هائلاً ماسكا بيده سيف القضاء على الاستعمار .

وبعد ، فأننا لا نقصد من تسجيل ما قدمنا ، تثبيط الهمم عن إجابة الدعوى إلى المؤتمر والعمل على نجاحه بكل السبل ، وإنما نقصد إلى تمهيد السبيل للمجتمعين والذين سيجتمعون فى المؤتمر إن شاء الله لتعرف مختلف الميول والآراء ، والعمل على تحقيق الصالح والأنفع ، والبدء بالأهم المجدى الذى لا خلاف فيه .

فأما مسألة الخلافة التى تردد ذكرها على أفواه الكثيرين فمسألة لم تتحقق من وجودها فى برنامج المؤتمر بعد ، وقد نفاها كل الذين اتصلنا بهم من أصحاب الشأن . ولهذا فأننا نمسك عن إبداء رأينا فيها ، حتى تقوم لدينا الأدلة على صدق ما يزعمون .

والله وحـده نسأل أن يقى المسلمين شر الفتن ، وتعدد النزعات ، إنه وحـده بتحقيق السؤال كفيل .

عبد العزيز الاسلامبولى